

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة (٤٩) : النزعة الإنسانية في الإسلام - ظاهرة الزلازل .

١٥-١٠-١٩٩٩

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لعزته، وخضع كل شيء لهيبته، واستسلم كل شيء لقدرته، وتصاغر كل شيء لكبريائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف، فيا رب كيف نفتقر في غناك، وكيف نضل في هداك، وكيف نذل في عزك، وكيف نضام في سلطانك، وكيف نخشى غيرك، والأمر كله إليك. قال بعض العلماء: من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدرَ الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدرَ غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه بنعيم الإقبال عليه والإنابة إليه. وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه، وأنت أحوج شيء إليه، وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغبٌ.

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله أرسلته رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجنا من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن ذل الشرك إلى عز التوحيد، ومن حول الشهوات إلى جنات القربات. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل محمد وعلى أصحاب محمد وعلى ذرية محمد وسلم تسليماً كثيراً.

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله وأحتمكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير.

من ثمرات إنسانية الإسلام اليانعة:

إن الإنسانية إحدى خصائص الإسلام الكبرى، إنها تشغل حيزاً كبيراً في منطلقاته النظرية، وفي تطبيقاته العملية، وقد ربطت بعقائده وشعائره ومنهجه وآدابه ربطاً محكماً؛ فالإنسانية في الإسلام ليست مجرد أمنية شاعرية تهفو إليها بعض النفوس، وليست فكرة مثالية تتخيلها بعض الرؤوس، وليست جبراً على ورق سطرته بعض الأقلام، إنها ركنٌ عقدي، وواقع تطبيقي، وثمار يانعة.

من ثمرات إنسانية الإسلام اليبانة مبدأ الإخاء الإنساني، إنه مبدأ قرّره الإسلام بناءً على أنّ البشر جميعاً أبناء رجلٍ واحد وامرأة واحدة، ضمّتهم هذه البنوّة الواحدة المشتركة، والرحم الواصلة، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١)

(سورة النساء)

ولعل كلمة: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ]، وكلمة [مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ] تلزمننا أن نفهم كلمة [الْأَرْحَامَ] في هذه الآية على أنها الرحم الإنسانية العامة التي تسع البشر جميعاً.

النبي الكريم يعلن من خلال هذا الدعاء المتكرر الأخوة بين عباد الله جميعاً:

النبي صلى الله عليه وسلم يقرّر هذا الإخاء ويؤكّده كل يوم أبلغ تأكيد ؛ فقد روى الإمام أبو داود وأحمد في مسنده عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي دُبُرِ صَلَاتِهِ:

((اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، اجْعَلْنِي مُخْلِصًا لَكَ وَأَهْلِي فِي كُلِّ سَاعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْأَكْبَرِ، اللَّهُمَّ نُورَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْأَكْبَرِ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْأَكْبَرِ))

[أبو داود وأحمد عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ]

النبي صلى الله عليه وسلم يعلن من خلال هذا الدعاء المتكرر الأخوة بين عباد الله جميعاً، لا بين العرب وحدهم، ولا بين المسلمين وحدهم، بل هي أخوة بين بني البشر جميعاً، على اختلاف أجناسهم وأعرافهم وألوانهم وطبقاتهم ومللهم ونحلهم، والبشر جميعاً عند الله جل جلاله نموذجان ؛ رجل عرف الله وانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فَسَلَّمَ وسعد في الدنيا والآخرة، ورجل غفل عن الله وتفلّت من منهجه وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة.

وهذا الإخاء الإنساني في الإسلام ليس للاستهلاك المحلي، ولا للتضليل العالمي، إنما هي حقيقة دينية لا ريب فيها، تنطلق من كلمتي التوحيد والرسالة ؛ فشهادة أن لا إله إلا الله إسقاط لكل المتألهين في الأرض الذين طغوا وبغوا، وشهادة الرسالة وصفت محمداً عليه الصلاة والسلام أنه عبده ورسوله، يتبع ما يوحى إليه قال تعالى:

﴿ وَإِذَا تَنَلَّيْتُمْ آلِيَهُمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِفُرْقَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾

(سورة يونس)

الإخاء الديني المتفرع عن الإيمان والعقيدة المشتركة لا يضعف الإخاء العام بل يقويه:

قال تعالى:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾

(سورة الحاقة)

يزداد هذا الإخاء توثقاً وتأكيداً إذا أضيف إليه عنصر الإيمان فتجتمع الأخوة الدينية إلى الأخوة الإنسانية فتزيدها قوة إلى قوة، ولما كان باب الإيمان مفتوحاً لكل الناس بلا قيد، ولا شرط، ولا تحفظ على جنس أو لون أو إقليم أو طبقة، فإن الإخاء الديني المتفرع عن الإيمان والعقيدة المشتركة لا يضعف الإخاء العام بل يشده ويقويه، فلا تناقض بين الإخاء البشري العام وبين الإخاء الديني الذي تشير إليه الآية الكريمة:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾

(سورة الحجرات: الآية ١٠)

ويشير إليه الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُظْلَمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما]

النبي ربط ربطاً محكماً بين الأخوة الإنسانية وبين الإيمان وجعلها من مقوماته:

النبي صلى الله عليه وسلم ربط ربطاً محكماً بين الأخوة الإنسانية وبين الإيمان، وجعلها من مقوماته، فعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[رواه البخاري ومسلم عن أنس]

وفي رواية: وحتى يكره له ما يكره لنفسه، وقد ذكر بعض شُرَّاح الحديث أن كلمة أخيه في الحديث لم تُقيد بصفة تحدُّ إطلاقها، والمُطلق في النصوص المحكمة على إطلاقه، إذاً فالأخوة التي قصدتها المصطفى صلى الله عليه وسلم هي الأخوة الإنسانية.

لقد طَبَّقَ الإسلامُ هذا الإخاء الرفيع، وأقام على أساسه مجتمعاً ربانياً إنسانياً فريداً اضمحلَّت فيه فوارق الجنس واللون والقبيلة والطبقة. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((سلمان منا أهل البيت))

[الحاكم في المستدرک والطبرانی فی المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

و قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه))

[كشف الخفاء للعجلوني]

٢- مبدأ المساواة الإنسانية:

من ثمرات إنسانية الإسلام اليانعة مبدأ المساواة الإنسانية، فقد قرره الإسلام ونادى به، وهو ينطلق من أن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان لا من أي حيثية أخرى، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾

(سورة الحجرات)

لقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع خطبة جامعة مانعة تضمنت مبادئ إنسانية سيقت في كلمات سهلة سائغة، كيف لا وقد أوتي النبي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، فلقد استوعبت هذه الخطبة جملة من الحقائق التي يحتاجها العالم الشارد المعذب ليرشد ويسعد، قال تعالى:

﴿ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) ﴾

(سورة طه)

إن الله جل وعلا ربِّي محمداً صلى الله عليه وسلم ليربِّي به العرب، وربِّي العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم ليربِّي بهم الناس أجمعين قال تعالى:

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

النَّاسِ (٧٨) ﴾

(سورة الحج)

مبادئ انطوت عليها خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع:

من المبادئ التي انطوت عليها خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع:

١- الإنسانية متساوية القيمة:

الإنسانية متساوية القيمة في أي إهاب تبرز، على أية حالة تكون، وفوق أي مستوى تتربع، عن أبي نضرة قال: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسْطِ أَيَّامِ النَّشْرِ فَقَالَ:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَائَكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ، هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ))

[رواه أحمد عن أبي نضرة]

٢- النفس الإنسانية ما لم تكن مؤمنة بربها قد تبني مجدها على أنقاض الآخرين:

النفس الإنسانية ما لم تكن مؤمنة بربها مؤمنة بوعده ووعيده مؤمنة بأنه يعلم سرها وجهرها، لأن النفس الإنسانية تدور حول أثرتها، ولا تُبالي بشيء في سبيل غايتها، فربما بنت مجدها على أنقاض الآخرين، وبنت غناها على فقرهم، وبنت عزها على ذلهم، بل ربما بنت حياتها على موتهم، لذلك قال الرسول الكريم في حجة الوداع:

((... يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَدْرُونَ فِي أَيِّ شَهْرٍ أَنْتُمْ؟ وَفِي أَيِّ يَوْمٍ أَنْتُمْ؟ وَفِي أَيِّ بَلَدٍ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: فِي يَوْمٍ حَرَامٍ، وَشَهْرٍ حَرَامٍ، وَبَلَدٍ حَرَامٍ، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَهُ، ثُمَّ قَالَ: اسْمَعُوا مِنِّي تَعِيشُوا، أَلَا لَا تَتَّظَلِمُوا، أَلَا لَا تَتَّظَلِمُوا، أَلَا لَا تَتَّظَلِمُوا، إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ، أَلَا وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ وَمَالٍ وَمَأْتَرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ...))

[رواه أحمد عن أبي خرة الرقائبي عن عمه]

٣- المال قوام الحياة:

المال قوام الحياة، وينبغي أن يكون مُتداولاً بين كل الناس، وأنه إذا ولد المالُ المال من دون جهد حقيقي يسهم في إعمار الأرض، وإغناء الحياة، تجمّع في أيدي قليلة وحُرمت منه الكثرة الكثيرة، عندها تضطرب الحياة، ويظهر الحقد، ويُلجأ إلى العنف، ولا يلد العنف إلا العنف، والربا يُسهم بشكل أو بآخر في هذه

النتائج المساوية التي تعود على المجتمع البشري بالولايات، لهذا قال المصطفى صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع:

((أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رِبَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَضَى أَنْ أَوَّلَ رِبَا يُوضَعُ رَبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ))

[رواه أحمد عن أبي خزيمة الرقائبي عن عمه]

٤- النساء شقائق الرجال:

النساء شقائق الرجال، ولأن المرأة مساوية للرجل تماماً من حيث أنها مكلفة كالرجل بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، ومساوية له من حيث استحقاقها الثواب والعقاب، وأنها مساوية له تماماً في التشريف والتكريم، لهذا قال صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع:

((أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكَرَّهُونَ وَلَا يَأْدَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكَرَّهُونَ أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ))

[رواه الترمذي عن سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ]

لم يكتفِ الإسلام أن يقرر مبدأ المساواة نظرياً بل أكدته عملياً بجملة أحكام وتعاليم:

النبي صلى الله عليه وسلم قام لجنزة رجل وصفه القرآن بأنه من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، فلما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك قال: أليس إنساناً، لذلك عدَّ الإسلام الاعتداء على أية نفس اعتداء على الإنسانية كلها، كما عدَّ إنقاذ أية نفس إحياء للناس جميعاً، وهذا ما قرره القرآن الكريم بوضوح جلي، قال الحكيم الخبير:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (٣٢) ﴾

(سورة المائدة)

ولم يكتفِ الإسلام أن يقرر مبدأ المساواة نظرياً بل أكدته عملياً بجملة أحكام وتعاليم، نقلته من فكرة مجردة إلى واقع ملموس؛ من ذلك العبادات الشعائرية التي فرضها الإسلام وجعلها الأركان العملية التي يقوم عليها بناؤه العظيم من الصلاة والزكاة والصيام والحج.

في مساجد الإسلام حيث تقام صلاة الجمعة والجماعة تأخذ المساواة صورتها العملية، وتزول كل الفوارق التي تميّز بين الناس، فمن دَخَلَ المسجدَ أولاً أخذ مكانه في مقدمة الصفوف، وإن كان أقلّ الناس مالاً، وأضعفهم جاهاً، ومن تأخّر حضوره تأخّر مكانه مهما يكن مركزه، فكل الناس سواسية أمام الله ؛ في قيامهم، وقعودهم، وركوعهم، وسجودهم، ربُّهم واحد، وكتائبهم واحد، وقبلتهم واحدة، وحركاتهم واحدة، وإمامهم واحد.

في مناسك الحج تتحقق المساواة بشكل أشدّ ظهوراً، وتتجسد تجسداً تراه العين، فشعيرة الإحرام تفرض على الحجاج والمعتمرين أن يتجرّدوا من ملابسهم العادية، ويلبسوا ثياباً بيضاء بسيطة، غير مخيطة، ولا محيطة، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، يستوي فيها القادر والعاجز، والغني والفقير، والملك والمملوك، ثم ينطلق الجميع ملبيين بهتاف واحد: "لبيك اللهم لبيك"، ومن المساواة العملية التي قررها الإسلام قولاً وطبقها فعلاً المساواة أمام قانون الإسلام وأحكام الشرع.

الحرام في شريعة الإسلام يتّسم بالشمول والاطّراد:

الحرام في شريعة الإسلام يتّسم بالشمول والاطّراد، فليس هناك شيء حرام على الأعجمي حلال على العربي، وليس هناك شيء محظور على الملون مباح للأبيض، وليس هناك جواز أو ترخيص ممنوح لفئة من الناس تقترب باسمه ما طوع لها الهوى، بل ليس للمسلم خصوصية تجعل الحرام على غيره حلالاً له، كلا إن الله رب الجميع، والشرع سيد الجميع، فما أحل الله بشريعته فهو حلال للناس كافة، وما حرّم فهو حرام على الجميع كافة إلى يوم القيامة.

السرقه مثلاً حرام، سواء أكان السارق ينتمي إلى المسلمين أم لا ينتمي، وسواء أكان المسروق ينتمي إلى المسلمين أم لا ينتمي، والجزاء لازم للسارق أيّاً كان نسبه أو مركزه. وقد حاول بعض الصحابة أن يُشَفِّعُوا أسامةَ بن زيد، حبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حبه في امرأة من قريش، من بني مخزوم، سرقت فاستحقت أن يُقام عليها حدُّ السرقة، فكلمه أسامة فيها، فغضب عليه الصلاة والسلام غضبته التاريخية المعروفة، وقال قولته التي خلّدها التاريخ، فعن عائشة رضي الله عنها:

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَأَيُّمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها]

كان عمر رضي الله عنه إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال لهم: " إني أمرت الناس بكذا ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وأيم الله لا أوثقن بواحد وقع في ما نهيت الناس عنه، إلا ضاعفتُ له العقوبة لمكانه مني"، فصارت القرابة من عمر مصيبة.

وفي خلافته رضي الله عنه وأرضاه، جاءه إلى المدينة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة يعلن إسلامه، فرحّب به عمر أشد الترحيب، وفي أثناء طواف هذا الملك حول الكعبة داس بدوي طرف إزار الملك الغساني، فيغضب الملك ويلتفت إلى هذا البدوي فيضربه ويهشم أنفه، فما كان من هذا البدوي من فزارة إلا أن توجه إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب شاكياً، فيستدعي عمر رضي الله عنه الملك الغساني إلى مجلسه ويجري بينهما حوار صيغ على الشكل التالي: " قال عمر: جاءني هذا الصباح مشهد يبعث في النفس المرارة، بدويٌّ من فزارة، بدماء تتظلم بجراح تتكلم، مقلّة غارت وأنف قد تهشم، وسألناه فألقى فادح الوزر عليك، بيديك، أصحيح ما ادّعى هذا الفزاري الجريح؟ قال جبلة: لست ممن ينكر أو يكتم شيئاً أنا أدبْتُ الفتى، أدركتُ حقي بيدي، قال عمر: أيُّ حقٍّ يا ابن أيهم، عند غيري يقهر المستضعف العافي ويظلم، عند غيري جبهة بالإثم والباطل تُلطم، نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها وأقمنا فوقها صرحاً جديداً، تساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً، أرض الفتى، لا بد من إرضائه مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك وتنال ما فعلته كفك، قال جبلة: كيف ذاك يا أمير المؤمنين، هو سوقة وأنا صاحب تاج، كيف ترضى أن يخز النجم أرضاً، كان وهماً ما مشى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني. قال عمر: عالم نبنيه، كل صدع فيه بشبا السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصلوك تساوى".

أما جبلة فلم يستوعب هذا المعنى الكبير في الإسلام، وقرّ من المدينة هارباً مرتدّاً، ولم يبالِ عمر ولا الصحابة معه بهذه النتيجة، لأن ارتداد رجل عن الإسلام أهونُ بكثير من التهاون في تطبيق مبدأ عظيم من مبادئه، وخسارة فرد لا تقاس بخسارة مبدأ.

٣ - ومن ثمرات إنسانية الإسلام اليانعة الدعوة إلى السلام بأوسع معاني هذه الكلمة:

أيها السادة المستمعون أيتها السيدات المستمعات، ومن ثمرات إنسانية الإسلام اليانعة دعوته إلى السلام بأوسع معاني هذه الكلمة؛ بمعانيها الفردية والجماعية، والمادية والروحية، والدنيوية والأخروية. قال تعالى:

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾

(سورة المائدة)

إنَّ الإنسان - أيَّ إنسان - في أي زمان ومكان، مفطور على حبِّ وجوده، وعلى حبِّ سلامة وجوده، وعلى حبِّ استمرار وجوده، وعلى حب كمال وجوده ؛ وبكلمة موجزة: مفطور على حب سلامته وسعادته، وهذان المطلبان الثابتان لدى أي إنسان لا يتحققان إلا حينما يطبق منهج الذي خلقه، فهو خبير بأسباب سلامته وسعادته، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (٢١) ﴾

(سورة البقرة)

وقال عز وجل:

﴿ وَلَا يَنْبُتْكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾

(سورة فاطر)

أين نجد منهج الذي خلقنا، وهو الخبير بأسباب سلامتنا وسعادتنا ؟ إننا نجده في كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم، في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي يهدي للتي هي أقوم، وهو هدىً وبيان، وموعظة وبرهان، ونور وشفاء، وذكر وبلاغ، ووعد ووعد، وبشرى ونذير، يهدي إلى الحق وإلى الرشده، وإلى صراط مستقيم، يُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فيه تبيان لكل شيء وهو شفاء لما في الصدور، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم ؛ من ابتغى الهدى في غيره أضله الله فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الردِّ، ولا تنتقصي عجائبه، مَنْ قال به صدق، ومَنْ حكم به عدل، ومَنْ عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم، قال تعالى:

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾

(سورة المائدة: الآية ١٦)

مَنْ أَرَادَ رِضْوَانَ اللَّهِ وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَهْتَدِيَ بِهَدْيِ الْقُرْآنِ:

مَنْ أَرَادَ رِضْوَانَ اللَّهِ وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ الْمُسْتَقِيمِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَهْتَدِيَ بِهَدْيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَلَا هَدْيَ سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَهُوَ الْهُدَى (١٢٠) ﴾

(سورة البقرة)

وقال:

﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ (٧٣) ﴾

(سورة آل عمران)

وقال:

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ (٣٢) ﴾

(سورة يونس)

فيعتقد بما جاء به القرآن، وعليه أن يحل حلاله وأن يحرم حرامه.

سبل السلام على المستوى الفردي والجماعي:

قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) ﴾

(سورة الأحزاب)

عندئذ يهديه الله سبل السلام ؛ بأوسع معاني هذه الكلمة، يهديه سبل السلام مع نفسه، فلا كآبة، ولا انقباض، ولا شعور بالذنب، ولا حسرة، ولا ندم، ولا سقوط، ويهديه سبل السلام مع أهله، فلا شقاء ولا شقاق، ولا عقوق ولا عصيان، ولا تفكك ولا انهيار، ولا مذمة ولا عدوان، ويهديه سبل السلام مع مجتمعه، فلا عداوة ولا بغضاء، ولا إثم ولا عدوان، ولا إبط ولا إخفاق، ولا مكر ولا كيد، ويهديه سبل السلام مع ربه، فلا حجاب ولا نكوص، ولا جفوة ولا فتور، ولا غضب ولا سخط، هذا على المستوى الفردي فماذا على المستوى الجماعي ؟ قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾

(سورة الأنفال)

قال علماء التفسير: ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم مطبقة في مجتمع ما؛ مطبقة في بيوتهم، وفي أعمالهم، وفي تجارتهم، وفي أفراحهم، وفي أتراحهم، وفي حلهم، وفي ترحالهم، وفي علاقاتهم، فهم في مأمن من عذاب الله بكل أنواعه ومستوياته، قال أحكم الحاكمين:

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾

(سورة النساء)

وقال عزَّ من قائل:

﴿ وَأَلَّوْا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنُقَاتِهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ
عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾

(سورة الجن)

وقال أيضاً:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

(سورة المائدة: الآية ٦٦)

سبل السلام على المستوى الدولي:

ماذا عن المستوى الدولي ؟ الأمة التي تطبق منهج الله يهديها الله سبل السلام، فيجعلها الله مستخلفة، ممكنة، آمنة، مطمئنة، قال تعالى مذكراً بهذه الحقيقة:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ
كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾

(سورة النور)

الأمة التي لا تطبق منهج الله في حياتها تنطبق عليها هذه الآية الكريمة انطباقاً كاملاً، قال تعالى:

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خُلَفَاءُ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) ﴾

(سورة مريم)

سبل السلام مع الجيران:

هذا عن سبل السلام في القرآن الكريم، فماذا عن سبل السلام مع الجيران ؟ إن السلام الذي تُدعى إليه نحن حريصون عليه، راغبون فيه على أن يكون سلاماً عادلاً تسترد قبله الأرض، وتودى معه الحقوق، وتتوافر فيه الكرامة، هذا بعد أن نستوعب مضمون الآية الكريمة وأن نعمل بها:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾

(سورة محمد)

نحن ندعو العالم العربي والإسلامي إلى مزيد من الوعي واليقظة والتماسك وإزالة أسباب الخلافات فيما بين المسلمين حتى يتفرغوا بحق لمواجهة المكائد والمؤامرات التي تحاك ضدهم وضد دينهم وضد مستقبل أبنائهم فضلاً عن حاضرهم وتراثهم.

وإن تعنت إسرائيل أوصلَ عملية السلام إلى طريقٍ مسدودٍ - كما قال السيد الرئيس في لقائه مع الرئيس الفرنسي - فهي ترفض رفضاً مطلقاً كلَّ مقومات السلام وتنهج نهجَ المراوغة والخداع، وتستفزّ الضمير الإسلامي والعربي والإنساني بإنشاء مزيدٍ من المستوطنات، ويضيف السيد الرئيس قائلاً: إن الخلاص يكون في الإسلام الذي عندما كنا متمسكين به لم يستطع أحدٌ أن يُدُلَّنَا، الإسلام دين الحق والعدالة والمساواة بين البشر، الإسلام مصدرُ قوةٍ لنا جميعاً، إن هذا يفرض علينا أن نناضلَ بكلِّ قِوانا وبصدقٍ وإخلاصٍ لحماية الدين الحنيف من هذه المؤامرات الاستعمارية لنحفظ له مهابتَه وجلالَه وليبقى مصدر عزة وقوةٍ للمسلمين وليبقى حافظاً لتقدُّمهم في كلِّ مجال، ويضيف السيد الرئيس قائلاً: العالم الإسلامي اليوم يواجه تحدياتٍ كبيرةً تستهدف الإسلام وما يمثِّله من قيم نبيلة، وما يدعو إليه من أخوة وعدالة ومساواة وحرية، وإذا كان من واجبنا أن ندافع عن ديننا فإن لنا فيه ينبوع قوةٍ ومصدر إلهام في مواجهة كلِّ ما يقابلنا من أخطارٍ وتحديات.

أيها الأخوة حضوراً ومستمعين، حَظَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ فِي حُطْبَتِهِ:

((أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، أَلَا وَإِنَّ الآخِرَةَ أَجَلٌ صَادِقٌ، يَفْضِي فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ، أَلَا وَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَدَافِيرِهِ فِي الْجَنَّةِ، أَلَا وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَدَافِيرِهِ فِي النَّارِ، أَلَا فَاعْلَمُوا، وَأَنْتُمْ مِنْ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُعْرَضُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))

[رواه بهذا اللفظ الشافعي في الأم، والبيهقي في السنن الكبرى عن شداد بن أوس]

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

الزلازل من وظائفها أنها تعطينا معنى الزلزلة الكبرى التي أوعدها الله بها:

أخوتي المؤمنين أعزائي المستمعين، أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُفْبِضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتْنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ، وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

في كل حين نسمع في الأخبار أن زلزالاً وقع في بلد، وزلزالاً وقع في بلد آخر، وأن هذه الأخبار تتقارب، وتتعاظم درجات هذه الزلازل، وتودي بحياة بضع عشرات من الألوف، وأن كثرتها وشدتها مصداق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، إن هذه الزلازل من وظائفها أنها تعطينا معنى الزلزلة الكبرى التي أوعدها الله بها، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾

(سورة الحج)

إنَّ الأرض من أكثر الكواكب في المجموعة الشمسية كثافةً، فكثافة الأرض تزيد على كثافة الماء بخمسة أضعاف، ويفسّر العلماء الزلزلة بأنها حركة في باطن الأرض، بحيث ينشأ عنها ضغط هائل، لا تحتمله قشرة الأرض، عندئذٍ تتصدّع هذه القشرة. وهذا التصدّع في قشرة الأرض هو الزلزال الذي نستمتع إلى أخباره من حينٍ إلى آخر علماً بأن هذه القشرة يزيد سمكها عن تسعين كيلو متراً، وهي من صخور البازلت، وهذه الصخور من أقسى أنواع الصخور ومع ذلك تتصدع، فما هذا الضغط من باطن الأرض الذي يصدع قشرة من البازلت يزيد سمكها على تسعين كيلو متراً هذا طرفٌ من معنى أن الله قوي، قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾

(سورة الذاريات)

الحكمة من معرفة الحيوانات بالزلازل قبل فترة من الزمن وجهل الإنسان بها:

يقول بعض علماء الزلازل: هناك زلزال حدث في الصين في عام ألف وخمسمئة وستة وخمسين، أودى بحياة ثمانمئة وثلاثين ألفاً في ثوانٍ، وفي عام ألف وسبعمئة وسبعة وثلاثين حدث زلزال في الهند أودى بحياة مئة وثمانين ألفاً، وفي عام ألف وتسعمئة وثلاثة وعشرين حدث زلزال في اليابان أودى بحياة مئة ألف، وفي عام ألف وتسعمئة وستة وسبعين حدث زلزال في الصين أودى بحياة مئة ألف، وحدث زلزال بإيطاليا أودى بحياة خمسة وثلاثين ألفاً، ثوانٍ معدودة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾

(سورة الحج)

سألوا عالماً كبيراً من علماء الزلازل: هل يمكن بما أوتينا من علم متقدم أن نتنبأ بالزلازل قبل وقوعه ولو بربع ساعة؟ قال: لا، إلا أن حيوانات كثيرة في مقدمتها من يضرب المثل بغبائه يشعر بالزلازل قبل وقوعه بربع ساعة، ذلك لأن هذه الحيوانات ليست مكلفة كالإنسان وليست مقصودة بالزلازل. قال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

(سورة الأحزاب)

ما هذه الزلازل في الأرض إلا نماذج مصغرة ومحدودة عن الزلازل العظيم يوم القيامة:

قال عز وجل:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) ﴾

(سورة الزلزلة)

زلزلت أي تحركت تحركاً شديداً واضطربت، زلزالها العظيم والكبير والأخير، الذي ليس بعده زلزال، وذلك عند قيام الساعة، وما هذه الزلازل في الأرض إلا نماذج مصغرة ومحدودة:

﴿ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) ﴾

(سورة الزلزلة)

هو الإنسان، المخلوق الأول الذي خلق لجنة عرضها السماوات والأرض، لأنه قبل حمل الأمانة فسخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وجعله خليفته في الأرض، فإن سما عقله على شهوته كان فوق الملائكة، وإن سمى شهوته على عقله كان دون الحيوان:

﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) ﴾

(سورة الزلزلة)

تعجباً وخوفاً:

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) ﴾

(سورة الزلزلة)

ما عمله الإنسان على وجه الأرض من خير أو شر:

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) ﴾

(سورة الزلزلة)

أُذِرَهَا عَلَى الْكَلَامِ، وَأَذِنَ لَهَا فِيهِ، وَأَمَرَهَا بِهِ:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّ النَّاسُ أُنثَاتًا (٦) ﴾

(سورة الزلزلة)

فرادى، متفرقين، فلا تجمعات، ولا تكتلات، ولا تناصر على باطل، ولا هيمنة، ولا غطرسة، ولا تعالي.

فضل سورة الزلزلة:

قال عز وجل:

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾

(سورة يس)

قال تعالى:

﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٧) ﴾

(سورة الزلزلة)

أي مقدار ذرّة، وهي الجزء الذي لا يتجزأ:

﴿ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾

(سورة الزلزلة)

يجد جزاءه وعاقبته، وردّ من حديث عبد الله بن عمرو الذي أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجلٌ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((أَقْرِنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَقْرَأُ ثَلَاثًا مِنْ ذَوَاتِ الرَّ، فَقَالَ: كَبُرَتْ سِنِّي وَاشْتَدَّ قَلْبِي وَغَلِظَ لِسَانِي، قَالَ: فَأَقْرَأُ ثَلَاثًا مِنْ ذَوَاتِ حَامِيمٍ، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ فَقَالَ: أَقْرَأُ ثَلَاثًا مِنَ الْمُسَبِّحَاتِ، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرِنِي سُورَةَ جَامِعَةٍ، فَأَقْرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أُرِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا، ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْلَحَ الرَّوَيْجُلُ مَرَّتَيْنِ))

[أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو]

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به، وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء، ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامع في الدنيا ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطل عن طاعته وخدمته، ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتنال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارط أو اغتنام برّ وقربة، وفكرٌ يجول فيما لا ينفع، وخدمةٌ من لا تقربك خدمته إلى

الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله، وهو أسير في قبضته، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

أعظم هذه الإضاعات إضاعتان وهما أصل كل إضاعة؛ إضاعة القلب وإضاعة الوقت، وإضاعة القلب من إثارة الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل، والصالح كله في اتباع الهدى والاستعداد للقاء، والله المستعان.

العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض، وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته.

أيها الأخوة الأحباب إني داع فأمنوا، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات، واجعلنا نخشاك حتى كأننا نراك، وأسعدنا بقلبك، ولا تشقنا بالبعد عنك، اختر لنا في قضائك، وبارك لنا في قدرك، حتى لا نحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت، ألزمتنا سبيل الاستقامة لا نحيد عنها أبداً، واهدنا لصالح الأعمال لا يهدي لصالحها إلا أنت، نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والعزيمة على الرشد، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل أثم، والفوز بالجنة والنجاة من النار، اغفر للمسلمين والمسلمات، وألف بين قلوبهم، وأصلح ذات بينهم، واهدهم سبل السلام، وجنبهم الفواحش والآثام ما ظهر منها وما بطن، اللهم أصلح شباب المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين، وأصلح النساء المسلمات واجعلهن تقيات، عفيفات، طاهرات، اللهم أنزل علينا من خيرات السماء، وأنبت لنا من بركات الأرض، واسق عبادك العطشى يا رب العالمين.